مُقدِّمة

القاضي العلامة محمد بن إسماعيل العمراني [١]

الحمد لله وَحْدَهُ ، والصلاةُ والسلامُ على من لا نبيَّ بَعْدَهُ ، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ ، وجُنْدِهِ .

وبعدُ ، فهذا كتاب (تحفة الخطيب) الذي دبَّج كلماته قلمُ العلاَّمة الفاضل (أبي عبد الله فيصل بن قائد الحاشديّ) ـ حفظه الله، ونفع بعلومه! ـ، قد جمع في طيِّه جملةً صالحةً من الفوائد العلميَّة ، والفرائد الأدبية، وبناءً على ذلك فإنِّي أُوصي بسرعة طبعه ونشره ؛ لتعمَّ الفائدةُ الجميعَ من محبِّي العلم ، وعُشَّاق المعرفة ـ إن شاء الله تعالى ـ ، فجزى الله المؤلِّف خيراً ، وزاد في الناس من أمثاله ، وما زال رمزاً للعالم العامل [٢] ، ومثلاً كاملاً من أمثلة النشاط العلميِّ، والإصلاح الدِّينيِّ .

« آمينَ آمينَ ، لا أَرْضَى بواحدةٍ حتَّى يُضافَ إليها أَلْفُ آمينَا » .

وسبحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيم .

محمد بن إسماعيل العمراني

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

---

[١] هو حفيد شيخ الإسلام الشوكانيِّ بالتَّلمذة ، والمفتي في إذاعة صنعاء .

[٢] هذا من حسن ظنِّ الشيخ بي، فجزاه اللهَ خيراً على ثقته بي ، وأسأل الله أن يوصلنا إلى هذه المنزلة بمنِّه وكرمه ، آمين .

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمدَ للهِ ، نَحْمَدُهُ ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونستهديه ، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسنا ، وسيِّئات أعمالنا ، مَنْ يهده اللهُ فلا مضلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شريكَ له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران : ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾

[الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أمَّا بَعْدُ ، [١] فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ ، وخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ

---

(١) هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله - ﷺ - يقولها بين يَدَيْ كلامه ، وفي خطبته ، وقد زَهدَ فيها كثير من خطباء هذا الزمان إلا من رحم ربُّك ، وروى هذه الخطبة ستَّة من الصَّحابة، وقد أخرجها جمع من الأئمَّة في مصنَّفاتهم، منهم :
مسلم في «الصَّحيح» (٦/١٥٣ - ١٥٦ - ١٥٧ مع شرح النَّوويّ) ، وأبو داود في «السُّنن» (١/٢٨٧) رقم (١٠٩٧)، والتِّرمذيُّ في «الجامع» (١١٠٥) ، والنَّسائيُّ في «المجتبى» (٣/١٠٤ - ١٠٥) ، وابن ماجه في «السُّنن» (١/٥٨٥) ، والحاكم في «المستدرك» (٢/١٨٢ - ١٨٣)، والطَّيالسيُّ في «المسند» (٣٣٨)، والطحاويُّ في «المشكل» (١ ، ٢) ، والبيهقيُّ في «السُّنن الكبرى» (٧/١٤٦) و(٣/٢١٤)، والطبرانيُّ في «المعجم الكبير» (١٠٠٧٩) ، (١٠٠٨٠) ، والبغويُّ في «شرح السُّنَّة» (٢٢٦٨) ، وعبد الرزَّاق في «المصنَّف» (١٠٤٤٩) و(١٢٤٤٩)، وأحمد في «المسند» (٣٧٢٠، ٤١١٥، ٤١١٦)، وابن الجارود في «المنتقى» (٦٧٩).
قال الألبانيُّ في خاتمة رسالته « خطبة الحاجة » ما نصه : « قد تبيَّن لنا من مجموع الأحاديث المتقدِّمة - أنَّه هذه الخطبة تفتتح بها جميع الخطب، سواء كانت خطبة نكاح، أو خطبة جمعة ، أو غيرها ، فليست خاصَّةً بالنكاح كما يظنُّ » .

ـ ﷺ ـ ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها ، وكُلَّ مُحدثةٍ بِدْعةٌ ، وكُلَّ بِدْعةٍ ضلالةٌ ، وكُلَّ ضلالةٍ في النَّار .

وبعدُ ، فهذه رسالةٌ بعُنوان « تحفةُ الخطيب » ، أقدِّمها للقارئ الكريم راجيًا أنْ يجدَ فيها مَا يَشْفِي العلَّة ، ويَرْوِي الغُلَّة كلامًا يلطف كالهواء رقَّةً ، وكالماء عذوبةً ، يمتزج بالنفوس ، ويشرب بالقلوب ، يأخذ بيد الخطيب إلى الذِّروة من البَيَان ، والقمَّة من التَّأثير ، والأسلوب الرائع ، وبلوغ المقصد من أقصرِ طريقٍ ، لكنَّه لا يضمن له أنْ يكونَ خطيبًا مصْقَعًا [١] ، ما لَمْ يَرِضْ [٢] نفسه عليه رياضةً كاملةً ، فَعِلْمُ النَّحْوِ لا يضمن لمتعلِّمه أنْ ينطقَ بالفُصْحَى ، ما لم يُمرِّسْ نفسَهُ عليه ، وعِلْمُ الأخلاق لا يضمن لعارفه سلوكًا قويمًا ، ما لم يرضْ نفسه على الأخذ به ، وهكذا كُلُّ العلوم النَّظريَّة التي تظهر ثمرتها في العمل ، فكذلك (لا يحصل على مَلَكَة [٣] الخَطَابة إلاَّ مَنْ أحكم وسائلها ، وسلك سبيلها ، وتدرَّب عليها يومًا فيومًا ، وقد راض عليها لسانه في النَّوادي العامَّة ، والجموع العظيمة ، وإنْ رَاعَهُ الموقفُ أوَّلاً أَمنَهُ آخرًا ، فقديمًا قيل : «مَنْ وقف حيث يكره ، وقف حيثُ يُحبُّ ») [٤] . وأخيرًا :

خُذْهَا مِنَ القَلْبِ لَوْ أنَّ الدُّجَى [٥] صُبِغَتْ ثِيَابُهُ بِسَنَاهَا [٦] المُشْرِقِ الغَالِي

لَصَارَ نُورًا كَأَنَّ الشَّمْسَ طَلْعَتُهَا وَالبَدْرَ وَمْضَتُهَا [٧] فِي حُسْنِ إِجْلَالِ

---

(١) **مصْقَعًا** : بليغًا ، والجمع مَصَاقِع .

(٢) أَصلها « **يَرِيض** » من راض الشيءَ : إذا مارسه وتدرَّب عليه، فَحُذِفَتْ الياء تخلُّصًا من التقاء الساكنين.

(٣) **مَلَكَة** : موهبة ، والجمع مَلَكَاتٌ .

(٤) انظر «فنّ الخطابة» لعلي محفوظ (ص١٩) .

(٥) **الدُّجى** : ظلام اللَّيل، جمع دجية.

(٦) **السَّنا** : الضوء الساطع.

(٧) **وَمْضتها** : لمعتها.

تعريف الخطابة

تعريف الخطابة لغة :

قال ابنُ مَنْظُورٍ : «قال اللَّيثُ : والخُطْبَةُ مَصْدَرُ الخطيب ، وخَطَبَ الخَاطِبُ عَلَى المِنْبَرِ ، واخْتَطَبَ يَخْطُبُ خَطابَةً ، واسم الكلام الخُطْبَةُ .

وقال الجوهريُّ : خَطَبْتُ عَلَى المِنْبَرِ خُطْبَةً ـ بالضَّمِّ ـ ، وَخَطَبْتُ المرأةَ خِطْبَةً ـ بالكسر ـ .

إلاَّ أنَّ الخُطْبَةَ عند العرب : الكلام المنثور المُسجَّع ونحوه التَّهذيب ، ورجلٌ خطيبٌ : حَسَنُ الخُطْبَةِ ، وجمعُ الخَطِيبِ خُطَبَاءُ» [١] .

الخطابة اصطلاحا :

هي مَلَكَةٌ تُعينُ صاحِبَها عَلَى إقناع المخاطبين في أيِّ أمرٍ يدَّعي أنَّه غرضٌ صحيحٌ [٢] .

أو هي علم معرفة طرق أداء الكلام ، ونقل الأفكار إلى عقول السامعين ، وأحاسيسهم بصورةٍ مخصوصةٍ ، وصفاتٍ معيَّنةٍ .[٣]

---

(١) « لسان العرب » (٣٦١/١) .

(٢) « فنُّ الخطابة » (١٤/١٣) .

(٣) « خصائص الخُطْبَةِ والخَطِيبِ » (ص٢٢) .

طرق تحصيل الخطابة

١ - **فطرةٌ مواتيةٌ . واستعدادٌ غريزيٌّ** ، ونفسٌ متوثبةٌ ، وبديهيَّةٌ مستيقظةٌ ، وكُلُّ هذا لا يحتاج إلا إلى التَّعليم والممارسة .

٢ - **معرفة الأصول والقوانين التى وضعها الحكماء :**

قال ابنُ سيناء في ذكر قوانين الخطابة : « القوانين على هذا هاديةٌ مُرْشِدةٌ، تُساعِدُ على تحصيلِ الخطابة بإنارة السَّبيل ، ولا تُكَوِّنُ وَحْدَها الخطيب، بل هي مُهَذِّبةٌ للفطْرة ، مُساعدةٌ لها » [١] .

٣ - **قراءة كلام البُلَغَاء :**

إنَّ قراءة كلام البُلغَاء تُقدِّم للخطيب إرسالاً من المعاني والأساليب التي تُنمِّي فيه مَلَكَةَ الخطابة.

قال ابن الأثير : « فإنَّه (أي الخطيب) إذا كان مُطَّلعًا على المعاني المَسْبُوقُ إليها ، قد ينقدح له من بينها معنىً غريبٌ ، لم يُسبقْ إليه » [٢] .

ومن اللَّطائف ما ذكره أبو هلالٍ العسكريُّ ـ رحمه الله ـ أنه قال : «حُكِيَ لي عن بعض المشايخ أنَّه قال : رأيتُ في بعض قُرى النَّبْط فتىً فصيحَ اللَّهجة ، حسَنَ البَيَان ، فسألته عن سبب فصاحته مع لكنَة أَهْلِ جِلْدَته ، فقال: كنتُ أعمدُ في كُلِّ يوم إلى خمسين ورقةً من كتب الجاحظ ، فَأَرفع بها صوتي في قراءتها ، فما مرَّ بي إلا زمانٌ حتَّى صِرْتُ إلى ما تَرَى » [٣] .

قلتُ : لو عَمدَ كُلَّ يومٍ إلى عَشْرِ صفحاتٍ من كتاب الله ، ورفع بها صوته ـ لكان من أَفصح العرب ! .

---

(١) « الخَطَابة » لأبي زهرة (ص٢٤) .

(٢) « المثل السائر » لابن الأثير .

(٣) « الحثُّ على طلب العلم ، والاجتهاد في جمعه » لأبي هلالٍ العسكريّ (ص٧٢) .

٤- الارتياض والممارسة والاحتذاء :

لابُدَّ من الارتياض؛ لأن الخطابة مَلَكَةٌ نفسيَّةٌ، لا توجد دفعةً واحدةً، والارتياض: هو التَّدَرُّبُ على الخطابة؛ فإنَّ مَلَكَتَهَا تنمو وتقوى بالمرانة والممارسة.

قال خالد بن صفوان: «إنَّما اللِّسانُ عُضْوٌ، إنْ مرَّنتَه مرن، فهو كاليد تُخشِّنُها بالممارسة، وكالبَدَن تُقوِّيه برفعِ الحجَرِ، والرِّجْلُ إذا عُوِّدتِ المَشْيَ مَشَتْ» .

وجاء في كتاب « تاريخ الحضارة » في الحديث عن ديموستين ـ خطيب اليونان ـ : « أنه عندما خطب على المنبَرِ العام ، قُوبِلَ كَلامُهُ بالقَهْقَهَة ؛ إذ كان صوتُهُ ضعيفًا جدّاً ، ونَفَسُهُ قصيراً ، ليست لحركته لَبَاقةٌ ، ولا في لسانه طَلاقةٌ ، فلمَّا اعتزم الخطابة ، أخذ يُقوِّي رِئَتَهُ وحُنْجُرَتَهُ بالصِّياحِ فوق رءوس الجبال ، وعلى شواطئ البحار ، يرفع صوته مع صَخَبِ الأمواج ، وتغلَّب على عَاهَةِ النُّطْقِ بممارسة الكلام وفي فيه حَصَى ، وتعلَّم أُصُولَ اللَّباقة ، ورشاقة الحركة (الحذق ولطف الحركة) بالوقوف أمام المرآة وهو يخطب ، حتَّى صار كبير الخُطَبَاء في كُلِّ فُنُونِ الخطابة » .

وجاء في كتاب «البيان والتَّبيين» للجاحظ: «ويُقال: إنهم لم يَرَوْا ـ قَطُّ ـ خطيباً بلديّاً إلا وهو في أوَّل تكلفه لتلك المقامات ، كان مستثقلاً مستصلفاً أيَّام رياضته كُلَّها إلى أن يتوقَّح ، وتستجيبَ له المعاني، ويتمكَّن من الألفاظ إلا شَبِيبَ بْنَ شَيْبَةَ [1] ؛ فإنَّه ابتدأ بحلاوة ، ورَشَاقة ، وسُهُولَة ، وعُذُوبَة ، فلم يَزَلْ يزدادُ منها ، حتى صار في كُلِّ موقفٍ يبلغ بقليل الكلامِ ما لا يَبْلُغُهُ الخُطَبَاءُ المَصَاقِعُ بكثيره » .

ويحدِّثنا التَّاريخُ أنَّ عُمَرَ بْنَ سعيد بْنَ العَاصِ الأُمَويَّ كان لا يتكلَّمُ إلاَّ واعترته حبسةٌ في منطقه ، فلم يَزَلْ يتشدَّقُ ، ويُعالج إخراجَ الكلامِ حتى مال

(١) هو شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ بْنِ عبد الله المِنْقَرِيُّ التَّميميُّ ، خطيب البَصْرَة ، ونشأ بها ، وامتاز بنبالة نفسٍ ، وسخاء كفٍّ ، وحسنِ تواضعٍ، ونَزاهةِ لسانٍ ، كما امتاز بخطبه القصيرة البليغة ، القريبة من حدِّ الإعجاز .

شدْقُه ؛ ولذا لُقِّبَ بالأشْدق ، وفيه يقولُ الشَّاعرُ :

تَشَدَّقَ حتَّى مـال بالقَولِ شِدْقُه[1] وكُلُّ خطيبٍ ـ لا أَبَا لَكَ[2] ـ أَشْدَقُ[3]

وليست الرياضة فقط لطالب الخطابة؛ بل هي لازمة لمن شَدَا فيها[4].

قال خطيب المعتزلة الجاحظ ـ كما يصفه بذلك ابن تيميّة ـ: «وأنا أُوصيك ألاَّ تَدَعَ التماسَ البَيَان والتَّبيين، إنْ ظننتَ أنَّ لكَ فيهما طبيعةً، وأنَّهما يُناسبانك بَعْضَ المناسبات، ويُشاكلانك بَعْضَ المشاكَلَة، ولا تُهْمِلْ طبيعتَكَ، فيستولي الإهمالُ على قُوَّة القَريحَة، ويستبدُّ بها سُوءُ العَادَة، وإنْ كنت ذا بيانٍ، وأحسَسْتَ من نفسكَ بالنفوذ في الخطابة والبلاغة، وبقوَّة المنَّة[5] يَوْمَ الحفل ـ فلا تُقصِّرْ في التماسِ أعلاها في البيان سُورةً، وأرفعها في البيان منزلةً».

وقد يستطيع الخطيبُ أنْ يحصلَ على مَلَكَة الخطابة بسهولةٍ ويُسْرٍ، فيعمد إلى كتابة الخُطَب التي تُناسبَ المقام، والمكانَ، والزَّمانَ، ويذهب يُلقيها في البادية من الورقة أو من دون ورقة مع التحضير والإعداد المُسْبَق، ولتكنْ البادية غَيْرَ البادية التي هو فيها مُقيم وله فيها أَهْلٌ؛ حتَّى لا يَجدَ التَّثْبيطَ من الحُسَّاد والأَقْران[6]، فما تذهب الأيَّامُ إلاَّ وقد حصلَ على مَلَكَة الخطابة، فيكون قد استفاد وأفادَ غيرَه، فإذا طُلبَ منْهُ أن يخطبَ بَعْدَ ذلك في المدينة التي هو فيها مُقيمٌ، صفقتْ له أنفسُ النَّاسِ واكتمل سُرُورُهُمْ .

غُلامٌ إذا ما شرَّفَ الجمعَ صَفَّقت لَهُ أَنْفُسُ الحضَرِ ، واكتملَ البَشَرُ[7]

لَـهُ منْطِـقٌ لَـوْ أَنَّ للسِّحرِ بَعْضَـه مشَى بيننَا مِنْ حُسْنِ طلعتِهِ السِّحرُ!

---

(١) **الشِّدْق** : زاوية الفمِ مما تحتَ الخدِّ، جمعهُ أشْداق.

(٢) أسلوبٌ ليس القصدُ منه الدُّعاءَ عليه بفقد الأب ، بل هو أسلوبٌ أُريدَ به الحثُّ.

(٣) **الأشْدَق** : هو واسعُ الشِّدْقَين ، والفم الفصيح ، وسعةُ الفمِ عند العرب من سماتِ الفصاحة والبيان.

(٤) **شَدَا فيها** : أخذَ طرفًا منها.

(٥) **المنَّة** : النِّعْمَة ، والجمع منن.

(٦) **الأقران** : جمع قِرْن ، وهو النَّظير في العلم ، والشَّجاعة، وغيرهما.

(٧) **البشر** : الفرح والبَشاشة .

تقسيم الخطابة

يقسم المحدثون الخطابةَ إلى خمسة أقسام :

١ ـ الخُطْبَة الدِّينيَّة .

٢ ـ الخُطْبَة السِّياسيَّة .

٣ ـ الخُطْبَة القَضَائيَّة .

٤ ـ الخُطْبَة العَسْكَريَّة .

٥ ـ الخُطْبَة الاجتماعيَّة .

والذي يبدو أنَّ التَّقسيم هذا ليس على إطْلاقه ؛ فإنَّ السِّياسة والاجتماع والثقافة من الدين ، ولذلك كانتْ خُطَبُ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ بصفته إمامًا للنَّاسِ لا تختلفُ عن خُطَبِه بصفته مُبلِّغًا عن الله ، وكذلك خُطَبُ الخُلَفَاء الرَّاشدين السياسيَّة لا تختلف كثيراً عن خُطَبِ المناسبات الدِّينيَّة ، والخطيبُ النَّاجح مَنْ يُوازِنُ بين الأمورِ، ويجعلُ لكُلِّ مقامٍ مَقالاً ، ولكُلِّ مناسبةٍ حالاً .